# الفصل الثالث

## عرض وتحليل لمعيار الاختيار

## مـوضـــوع الكـتـــاب

ذكر الوزير ابن الخطيب فى آخر كتابه « الاحاطة » أسماء مؤلفاته اجمالا ، وأورد من بينها مؤلفه «معيار الاختيار» فذكر المعاهد والديار» على أنه مؤلف قائم بنفسه ، ثم أورده فى باب « المقامات » من مؤلفه الضخم « ريحانة الكتاب ، وتحفة المنتاب » والذى يشتمل على أكثـر من غرض ولون أدبى تاريخى .

والمعيار الذى نتعرض لدراسته عبارة عن وصف شامل لأهم مدن مملكـة غرناطـة ، وأهم مـدن المغرب ، تناول فيـه ابن الخطيـب النواحى الجغرافية والتاريخية والاجتماعية لمعظم المدن التى أوردها .

لقد بدأ أول ما بدأ بجبل الفتح ( جبل طارق ) ، وهو يومئذ ضمن مملكة بنى مرين المغربية ، وكان طبيعيا أن يبدأ الوصف بالجبل ، فهو كما يقول المؤلف : « فاتحة الكتاب من مصحف ذلك الاقليم ، ولطيفة السميع العليم ، وقصـص المهـارق ، وأفق البـارق ، ومتحـف هـذا الوطن المباين للارض المفارق » ، والجبل بالنسبة للبـلاد الاندلسيـة « محط طارقها بالفتح طارق » وله دوره الهام فى حماية البلاد الاندلسية حيث أنه « مسلحة من وراءه من العباد ، وشقة القلوب والاكباد » .

أما المدن الاندلسية التى أعقبها الجبل فى الوصف ، فهـى ـ حسب الترتيب الذى أوردها به ـ كما يلى :

| | |
|---|---|
| Estepona | 1 ـ اسطبونـــة |
| Marabilla | 2 ـ مربلـــة |
| Fuenjerola | 3 ـ سهيـــل |
| Malaga | 4 ـ مالقـــة |
| Velez Malaga | 5 ـ بليـــش مالقـــة |
| Comares | 6 ـ قمـــارش |
| Almuncar | 7 ـ المنكـــب |
| Salobrana | 8 ـ شلـــوبانيـــة |
| Berja | 9 ـ برجـــة |
| Dalias | 10 ـ دلايـــة |
| Almaria | 11 ـ المريـــة |
| Tabernas | 12 ـ طبـــرنـــش |
| Vera | 13 ـ بيـــرة |
| Mujacar | 14 ـ مجـــاقـــر |
| Cantoria | 15 ـ قنتـــوريـــة |
| Purchena | 16 ـ برشانـــة |
| Oria | 17 ـ أوريـــة |
| Velez Robia | 18 ـ بليش الشقراء |
| Baza | 19 ـ بسطـــة |
| Huescar | 20 ـ اشكـــر |
| Andarax | 21 ـ أنـــدرش |
| Jubles | 22 ـ شبالـــش |
| Juadix | 23 ـ وادى آش |
| Finana | 24 ـ فنيانـــة |
| Granada | 25 ـ غرناطـــة |
| Alhama | 26 ـ الحمـــة |
| Zalia | 27 ـ صالحـــة |

| | |
|---|---|
| 28 ــ أليرة ومنتفريــد | Illora e Mouteferio |
| 29 ــ لوشــة | Loja |
| 30 ــ أرجذونــة | Archidona |
| 31 ــ أنــتــقــيرة | Antequera |
| 32 ــ ذكــــوان | Coin |
| 33 ــ قرطمــة | Cartama |
| 34 ــ رنــــدة | Ronda |

وأما المدن المغربية فهى حسب ترتيب المؤلف أيضا :

1 ــ بــادس ، 2 ــ سبتــة ، 3 ــ طنجــة ، 4 قصــر كتامــة ، 5 ــ أصيلا ، 6 ــ سلا ، 7 ــ أنفا ، 8 ــ أزمور ، 9 ــ تيط ، 10 ــ ربــاط أسفــى ، 11 ــ مراكش ، 12 ــ أغمات ، 13 ــ مكناسة ، 14 ــ فاس ، 15 ــ مدينة الملك ، 16 آقرسلوين ، 17 ــ سجلماسة ، 18 ــ تــازة ، 19 ــ غساسة .

وعلى هذا فقد تناول ابن الخطيب أول ما تناول من مدن الاندلــس مدينة « اسطبونة » ، وانتهى بمدينة « رندة » ، وهو فى تناوله هذا للمدن لم يراع ترتيبا جغرافيا ولا تاريخيا ، بل ولا أولويا ، فقد كانت مدينـــة غرناطة مثلا فى المرتبة السادسة بعد العشرين من وصفه ، رغم أنهـــا حاضرة المملكة ، ولها من المبررات ما يجعلها أهلا للمرتبة الاولى مــن وصفه ، ولكن المؤلف حرر نفسه من كل قيد لتقديم مدينة على أخرى ، أيا كانت دواعى التفضيل ، وكيفما بلغت أهميتــه .

لقد كان المؤلف يتعرض للمدينة فى وصفه ، فيتناولها من معظم ما يتعلق بها ، اذ يتحدث عن موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية ، وحالة سكانها الاجتماعية ، فيعطينا صورة واضحة ــ الى حد بعيد ــ عن كل مدينــة تناولها قلمـــه .

ففى وصفه لموقع مدينة « قمارش » مثلا ، وما للموقع من أهمية، يقول : انها « مودع الوفر ، ومحط السفر ، ومزاحم الفرقــد والغفــر ،

حيث الماء المعين ، والقوت المعين » . وأما منتجات البلد من محاصيله ، فقد أشار الى أن « به الاعناب التى راق بها الجناب ، والزياتين واللـــوز والتين ، والحرث الذى له التمكين » . وفى معرض الوصف الاجتماعـــى يستدرك ابن الخطيب ، ذاما أهل البلد حين يقول : « الا أنه عدم سهله ، وعظم جهله ، فلا يصلح فيه الا أهله » .

أما اذا ارتأى مدينة حقيقة بمدح أحوالها الاجتماعية فهو لا يقصر فى حقها ، فمثلا مدينة « المرية » ــ على حد قوله « محط التجار ، وكرم النجار ، ورعى الجار . ما شئت من أخلاق معسولة ، وسيوف من الجفون السود مسلولة ، وتكك محلولة ، وحضارة تعبق طيبا ، ووجوه لا تعـرف تقطيبا » وهى ــ الى جانب تلك الرفاهية وذلك النعيم ، واللذة والسرور المقيم ــ « لم تزل ــ مع الظرف ــ دار نساك ، وخلوة اعتكاف وامساك »، فهو حريـص فى الوصف ، دقيق فى الاحاطـة ، شأن الخبير بالاماكـن والبقاع .

نأخذ أيضا مثالا لنهج المؤلف فى الاشادة بالاجتماعيات عند الناس ، وطريقته فى العرض للحقائق ، وتقصيه لها ، حين يذكر عن مدينة برشانة أن « أهلها أولو عداوة لاخلاق البداوة ، وعلى جوههم نضرة وفى أيديهـــم نداوة . يداوون بالسلافة علل الجلافة ، ويؤثرون علل التخلف على لـــذة الخلافة ، فاصبح ربعهم ظرفا قد ملىء ظرفا ، فللمجون به ســـوق ، وللمجون ألف سوق ، تشمر به الاذيال عن سوق ، وهى تبين بعض بيان عن عن أعيان» ، هذا من جانب، ومن جانب آخر لهذه المثالب، يذكر أن «وغدها ( المدينة ) يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجـور فيه » .

هذا ، وقد ظفرت بعض المدن الاندلسية بعناية خاصة من قلم ابن الخطيب ، كغرناطة ومالقة ، ولا عجب فلكل منهمـــا مركزهـا الادارى والسياسى ، فالاولى حاضرة ملك بنى الاحمر ، وزهرة المدن الاندلسية ،

ولها على ابن الخطيب أياد لا تنسى ، فكان عليه أن يوفيها حقها ، وأن يعطيها مستحقها ، فيحلها ـ من وصفه ـ مكانتها اللائقة ، ولكن هذا لا يمنعه ـ كمؤرخ صادق ـ من أن يبرز لنا بعض عيوبها : سواء فى طقسها الشتوى ، وبردها الذى « يمنع الشفاه من رد التحيات » ، أو الاسعار التى « معيارها يشعر بالترهات » ، وجفاف طباع بعض أهلها ، الذى يصل الى درجة « سوء الجوار ، وجفاء الزوار ، ونذالة الديار » : فهذا المسلك من ابن الخطيب نحو المدن فى وصفها يعطينا فكرة عن صدق قلمه، وتحرره من أىقيد، فغرناطة ـ وانكانت مقامهبجوار مخدوميه بنىالاحمر، ومحل سلطانه وجاهه ـ الا أن ذلك كله لا يمنعه من اعطاء كل ذى حق حقه ، وأنه فى هذا لا تأخذه لومة لائم .

لنستمع اليه فى شأن العاصمة النصرية ، حين يستهل وصف حمرائها:
« كرسيها ظاهر الاشراف ، مطل على الاطراف ، وديوانها مكتوب بآيات الانفال والاعراف » ، وفى معرض موقع المدينة ، يذكر لنا أن « هواءها صاف ، وللانفاس مصاف . حجبت ـ الجنوب عنها ـ الجبال ، فأمن الوبا والوبال ، وأصبح ساكنها غير مبال ، وفى جنة من النبال ، وانفسحت للشمال ، واستوفت الشروط على الكمال » ، كما يتحدث مشيدا بنهر شنيل ، وفضله على جنات غرناطة ومروجها ، فيقول « وانحدر منها ( جبل سييرا نيفادا ) مجاج الجليد على الرمال ، وانبسط ـ بين يديها ـ المرج ( فحص غرناطة ) الذى نضرة النعيم لا تفارقه ، ومدارى النسيم تفلى بها مفارقه . ريع من وادية بثعبان مبين ، ان لدغ تلول شطه تلها للجبين ، وولدت حيات المذانب عن الشمال واليمين ، وقلد منها اللبات سلوكا تأتى من الحصباء بكل در ثمين ، وترك الارض مخضرة ، تغير من خضراء السماء ضرة ، والازهار مفترة ، والحياة الدنيا بزخرفها مغترة »، ان هذه الروعة البيانية ، ودقة التعابير البلاغية ، جعلت الصورة تتجسم أمامنا ، حتى لنكاد نلمس منها كل جانب .

ثم يعود المؤلف بنا من مطافه الى الحمراء مرة أخرى ، فيكشف لنا عن منشآتها الرائعة ، وجناتها الساحرة ، وكيف أنها مدرج سلالة بنى نصر ، فيقول : « وتبرجت بحمرائها القصور مبتسمة عن بيض الشرفات، سافرة عن صفحات القباب المزخرفات ، تقذف بالانهار ـ من بعد المرتقى ـ فيوض بحورها الزرق ، وتناغى أذكار المآذن بأسمارها نغمات الورق . وكم أطلعت من أقمار وأهله ، وربت من ملوك جلة .. »

أما مالقة ـ عاصمة الحموديين الادارسة ـ فيتحدث المؤلف ـ بادىء ذى بدء ـ عن تاريخها كعاصمة لهؤلاء فيقول : « كرسى ملك عتيق ، ومدرج مسك فتيق ، وايوان أكاسرة ، ومرقب عقاب كاسرة ، ومجلى فاتنة حاسرة ، وصفقة غير خاسرة » ، ثم يشيد بشهرتها الصناعية فى الفخار والحرير « .. ومذهب فخارها له على الاماكن تبريز ، الى مدينة تبريز ، وحلل ديباجها بالبدائع ذات تطريز » . وبعد أن يصور محاصيلها وفواكهها، وما اشتهر به قومها من الاسهام بالبر بأوفر نصيب ، فى تخليص أسرى المسلمين من أيدى النصارى ، ووفرة أعيانها وعلمائها ـ يتناول بعدئذ مساوىء المدينة ، فيقول : « وعلى ذلك ، فطينها يشقى به قطينها ، وأزبالها تحيى بها سبالها ، وسروبها يستمد منها مشروبها ، فسحنها متغيرة ، وكواكب أذهانها النيرة متحيرة .. وطعاما لا يقبل الاختزان ، ولا يحفظ الوزان ، وفقيرها لا يفارق الاحزان .. » الى آخر هذه المساوىء التى أوردها عن مدينة مالقة .

وهكذا نرى أن موضوع الكتاب فى وصفه للبلاد الاندلسية أو المغربية قد اختط فيه ابن الخطيب موضوعية لا تبارى ، وشمولا فى الوصف لمختلف النواحى ، التاريخية ، والجغرافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية، فى صورة ناطقة نابضة .

## منهج ابن الخطيب فى الكتـــاب

عندما كتب ابن الخطيب مؤلفه « معيار الاختيار » اختط فى التحرير طريقة خاصة ، تختلف عن معظم كتاباته فى مؤلفاته الاخرى ، ذلك أنه بدأ بمقدمة معتادة أعقبها بمحاورة ، ثم انتهى الى صميم الموضوع ، فقسمه الى مجموعتين مستقلتين ، وأدرج كل مجموعة تحت مجلس خاص، وقصر المجلس الاول على المدن الاندلسية، ثم أعقبه بالمجلس الثانى فقصره على المدن المغربية . وهكذا بدأ المؤلف كتابه فى المجلس الاول ، بما جرت به عـــادة المؤرخين والمؤلفين المسلمين ، وذلك بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، كل هذا فى قالب يتناسب والموضوع الذى يتعرض له ، وهو وصف البلدان .

ثم ثنى بأن الانسان مدنى اجتماعى بطبيعته ، لا يستقيم حاله بدون مجتمع ، وبالتالى لا يقوم المجتمع بدونه ، وأنه ــ أى الانسان ــ أحيانـــا يتخذ سكناه حسبما اتفق ، وأحيانا يكون له ظرف الاختيار ، مرجحا من الامكنة ما غلبت حسناته على سيئاته ، وهذه الامكنة « كثيرا ما تنافر الى حكمها النفر ، وأعمل السفر » ، وأيا كان ، فانه لا توجد مدينة قد كملت من كافة النواحى كما يقول .

وبعدئذ يتحدث المؤلف عن خبر فى قالب قصة ، فهناك راو استهواه مكان ما ، فنزل به حتى حل المساء ، وحينئذ أبصر شيخا معه تلميـــذه وحماره ، وما استقر المقام بذلك الشيخ حتى حن الى صباه ، وضـــاق بمرارة المشيب ، وقسوة الغربة ، وشعوره بأن نفسه لم تتب بعـــد ، وأخيرا يسأل الله العفو والغفران ، والقربى من رحمته يوم الحســـاب ، معتمدا فى اجابة سؤله على شفاعة شيبه ، ثم تدور مناقشة بين الشيـــخ وفتاه ، وعندها ينبرى الشيخ ، فيحدثنا عن مدى خبراته فى أمور شتـــى

نتيجة علمه وبحثه ، وجوبه بلاد العالم ، ووقوفه بأقطار كثيرة للـــدرس والبحث . وتكون النتيجة أن يتقرب الراوى الى الشيخ ، مطمئنا اياه الى حسن طويته ، وما عليه من خلق يؤهله لان يتشرف بالاستماع الى فيض علمه ، ويسأل الراوى الشيخ ان يصف له بلاد الاندلس ثم بلاد المغرب ، فى دقة وأمانة واخلاص ، فأجابه الشيخ الى طلبه ، وبدأ الراوى بالسؤال عن جبل الفتح (جبل طارق) وهكذا .. حتى انتهى من المدن الاندلسية بمدينة « رندة » . ثم أخبر الشيخ سائله بأن الصبح قد قارب الوجود ، وأنه قد وفاه ــ فى الوصف ــ حسابه ، ولم يبق الا أن يكافئه على هذه الذخائـــر حتى يكون له أليفا ورفيقا ، فينثر الراوى المال بين يدى محدثه فيأخذ منه شاكرا ، وأخيرا يتفقد الراوى الشيخ على ضوء مصباح ، فلا يجد له أثرا ، « فكأن الفلك لفه فى مداره ، أو خسفت الارض به وبداره » ، فيتأســى الراوى عن هذا الفراق بأن « لكل اجتماع من خليلين فرقة » .

هكذا ينتهى نهج المؤلف فى « المجلس الاول » من كتابه .

أما فى « المجلس الثانى » فان الراوى يلج أحد الاســـواق ، وفى السوق « أمم تنسل من كل حدب ، وتنتدب من كل منتدى ومنتدب » ، فى بيع وشراء ، وتحايل للتعايش والكسب ، بمختلف الوسائل والاعمـــال ، فهناك « رقاة جنون ، بضروب من القول وفنون ، وفيهم كهل قد استظـــل بقيطون » ، قد ادعى العلم بالمغيبات ، والتفسير للمشكلات والاحاطـــة بأسرار الطبيعة ، وشفاء العضال من الامراض ، وفى مجال العلوم قد برع، ما بين طب ورياضة وتاريخ وجغرافية، وحديثوتفسير، ومنثور ومنظور، ومنطق وبرهان ، فهو قد جاب الاقطار فى الدرس والبحث والمعرفة . وهنا يجد الراوى بغيته ، فقد ذكره ذلك الرجل بالشيخ الاول ، فأراد أن يستكمل

معلوماته عن البلدان ، فاخترق اليه جموعا بشرية من قصاده ، وخاطبه بقوله : « بى الى تعرف البلدان جنوح وجنون ، والجنون فنون » فأجابه الشيخ موافقا ، متحفظا بأنه « لا تجود يد الا بما تجد ، والله المرشد » .

وهنا يسأله الراوى عن البلاد المغربية ، بادئا منها بـ « بادس » ، والشيخ يجيبه بمعلوماته عنها، واحدة تلو الاخرى، حتى ينتهى منها بمدينة « غساسة » ، وعندئذ « وجب اعتناء بالرحيل واهتمام ، وكل شىء الى تمام » كما قال الشيخ ، فقد انفض عن السوق أهله ، ولم يبق الا أن ينثر الراوى دنانيره ، مكافأة طيبة لمحدثه، فيتناول منها ما تستغنى به النفس، وقبل أن يتهيأ للسير لم ينس ـ وهو الحكيم المجرب ـ أن يزود الراوى بنصح منظوم ، فيه مزايا التحلى بالقناعة ، والايمان بالقضاء والقدر ، والتحفظ على السر وكتمانه ، وتحاشى التعثر بالناس ، وتقوى الله تعالى، فالقرب منه رهن بها ، وليست هناك خسارة أفدح من معصية الخالق . وأخيرا نرى الشيخ قد « ضرب جنب الحمار ، واختلط فى الغمار » وبقى الراوى يتتبع أثر الشيخ، ولكنه تعزى عن فراقه بأن «كل نظم الى انتثار»

بهذا ينهى ابن الخطيب « المجلس الثانى » ، وبانتهاء « المجلس الثانى » ينتهى الكتاب نفسه .

هذا هو المنهج الذى سلكه ابن الخطيب المؤلف فى كتابه « معيار الاختيار » ، وهو منهج ـ كما رأينا ـ قصصى ، دار فى فلك نوع خاص من القصة ، وهذا النوع هو الذى عرف من بين فنون النثر العربى باسم « المقامة » ، متخذا من المحاورة وسيلة لتشويق القارىء والمستمع ، وبخاصة فى صلب الموضوع ، عند وصفه للبلاد .

## قيمة الكتاب الادبية ومدى صلتـــه بفـــن المقامات فى الأدب العربـــى

ذكرنا أن « معيار الاختيار » قد جاء فى صورة قصة محـــــدودة ، والقصة من أدق الفنون الادبية وأصعبها تركيبا ، وهى تتمتع من بين سائر فنون الادب بالذيوع والانتشار ، لما تشتمل عليه من استمالة القلـــوب ، وامتناع النفوس ، فالآداب العالمية قد زخرت بهذا اللون الغنى منذ أقدم العصور ، ولقد ورثنا عن العرب منذ جاهليتهم ذخيرة نفيسة من القصص، تناولها المشتغلون بالبحث والنقد درسا وتحليلا ، وانقسموا حيالها الـــى فريقين متباينين ، ولكل وجهة ، فبعض المستشرقين فى دراستهم للقصـــة العربية يرون مع « كارادى فو » أنه « لم يسبق الادب العربى أى أدب آخر فى نوع الاقاصيص، بينما البعض الآخر يرى أن العرب ــ ابان حضارتهم ــ زودوا لغتهم بفلسفة الشعوب وعلومهم ، وتجاهلوا أدب القصة تجاهلا يكاد يكون مطلقا ، ومن ثم جهلوا أصول الفن القصصى ، فكانت قصصهم تفقد قيمتها الفنية تبعا لذلك .

وانصافا للحق نقول : ان القصص العربى ذو ألوان مختلفة ، وقد حظيت بعض هذه الالوان بعناية العرب ، فراعوا فى صوغها مقومات القصـــــة ، وأسس بنائها ، فجاء هذا اللون منها تحفة فنية ، لها قيمتها وروعتهـــا ، والبعض الآخر من ألوان القصة العربية فقد معظم هذه الاسس ، فكان مثارا للنقد ، ومحلا للملاحظة .

والقصص العربى أنواع : أشهرها القصص الدينى ، ومصـــــادره التوراة والانجيل والقرآن ، ثم ما جاء على ألسنة الرواة والمحدثين مـــن أخبار الاولين وقصصهم ، مزج فيها القصاص الحقيقة بالخيال ، والتاريخ بالاسطورة . وكان الهدف من هذا النوع من القصص الوعظ والارشاد فى معظمه ، ترغيبا فى الجنة وترهيبا من النار .

ومن أنواع القصص أيضا عند العرب القصص التاريخى البطولى ، كقصة عنترة بن شداد فى حروبه ، وسيف بنى يزن فى كفاحه ، وحرب البسوس فى طولها وشناعتها ، ومنها القصص العاطفى ، كقصة « قيس المجنون بليلاه » ، وعنترة العاشق لعبلة ، وكثير الواله بعزة ، الى آخر هذه الالوان القصصية ، التى تزخر بها كتب الادب العربى، وبعض التراجم الاجنبية . على أنه من الملحوظ أن القصة العربية تطورت مع الزمن ، واتخذت فى كل عصر طابعا خاصا ، رقيا عما قبل ، مع متانة فى البناء ، منذ الجاهلية حتى عصرنا الحاضر ، وقد تولد عن التصرف فى تركيبها نوع خاص منها ، وهو ما سمى ــ بين فنون النثر العربى ــ باسم « المقامة » ، والتى ترتكز على العناية بالاسلوب ، وتغليب الشكل على الجوهر ، فمن مقوماتها البلاغية السجع والجناس والكناية والتلاعب بالالفاظ ، ومن مقوماتها اللغوية طائفة ضخمة من شوارد اللغة ، وشواذ القواعد النحوية، ومن مقومات أسلوبها ــ كذلك ــ تضمينها بعض آيات القرآن الكريم ، أو الحديث النبوى ، أو الحكم والامثال ، أو المنثور أو المنظوم ، كما تشتمل المقامة على المعلومات الفقهية والطبية والعروضية والتاريخية ، الى غير ذلك مما عرف فى عصر المولعين بصناعتها .

فالمقامة ــ اذن ــ نوع من الترف الادبى ، وميدان للتدليل على مبلغ معرفة المؤلف بالعلوم والفنون على اختلاف أنواعها ، وقد ابتدعها « بديع الزمان الهمذانى » من أشهر أدباء العصر العباسى ، ويقال : انه أنشأ حوالى أربعمائة مقامة ، ولكن لم يظفر الناس منها اليوم بأكثر من نيف وخمسين مقامة ، ومن مقاماته الشهيرة المقامة القريضية ، نسبة الى القريض ، وهو الشعر ، لانه موضوعها ، والمقامة الخمرية ، والمقامة الجاحظية ، والمقامة الدينارية ، والمقامة البصرية ، والمقامة الكوفية ، ثم قلده فى نفس العصر كثيرون ، ولكن الحريرى كان بارعا فيها أيضا ، ومن مقاماته المعروفة مثلا « المقامة الصنعائية » نسبة الى صنعاء ، احدى مدن اليمن المشهورة .

أما ماذا يقصد بالمقامة عموما فهو تصوير بؤس الادباء ، واحتيالهم أحيانا لكسب عيشهم ، ولها راوية ينقل الخبر ، وبطل تدور حوله حوادثها.

على أن هذه المقامة قد اختفت من الادب العربى بعد ناصف اليازجى اللبنانى فى كتابه : « مجمع البحرين » ، ومحمد المويلحى المصرى فى كتابه ذى الشبه الكبير بالمقامة « حديث عيسى بن هشام » ، اذ لم يعد أحد بعدئذ يلتفت الى هذا اللون الادبى من أدباء عصرنا الحاضر .

هذا ، وقد كان من الطبيعى أن ينتقل فن المقامة من المشرق ــ منذ ظهوره ــ الى الاندلس ، وذلك عن طريق الرحلات التى قام بها كثير من الاندلسيين الى الشرق يطلبون العلم ، والذين عادوا الى موطنهم بعد أن درسوا ــ ضمن ما درسوا ــ هذا الفن ، فنشروه بين مواطنيهم ، وقد لوحظ أن مقامات بديع الزمان الهمذانى ورسائله ــ التى أشرنا اليها ــ قد ذاعت خصوصا فى عهد ملوك الطوائف بالاندلس ، فقد قام بعض الادباء الاندلسيين يومئذ بمعارضة هذه الرسائل والسير على نمطها ، ومن هؤلاء الاديب عبد الله محمد بن شرف القيروانى ، الذى عارض مقامات البديع، حسبما يروى ابن بسام عن هذا الاديب المعاصر للمعتضد بن عباد بأشبيلية 434 ــ 461 هـ ( 1042 ــ 1068 م ) . كذلك روى ابن بسام عن الشاعر أبى المغيرة عبد الوهاب بن حزم المتوفى حوالى سنة 420 هـ ( 1029 م ) أن هذا الاخير عارض رسالة للهمذانى فى وصف غلام ، وفى موضع آخر من كتاب الذخيرة يورد ابن بسام أجزاء من مقامتين ، أحداهما لابى حفص عمر الشهيد ، والاخرى لابى محمد بن مالك القرطبى ، وهذان الاديبان عاشا فى عهد المعتصم بن صمادح بمدينة المرية الاندلسية 443 ــ 484 هـ ( 1051 ــ 1091 م ) .

ونزيد تعريفا بصلة المغرب بالمشرق حول فن المقامة ، فنذكر أيضا أنه فى أوائل عهد المرابطين بالاندلس انتشرت مقامات الحريرى بالمغرب على مدى واسع ، فى الوقت الذى انتشرت فيه بالشرق ، واهتم علماء

الاندلس بحياة مؤلف هذه المقامات ، فقد روى ابن الابار « أن كثيرا من الاندلسيين سمعوا من الحريرى مقاماته الخمسين ببستانه ببغداد ، ثم عادوا الى بلادهم ، حيث حدثوا بها عنه » ، ومن هؤلاء الحسن بن على البطليوسى المتوفى عام 566 هـ (1169 م) وأبو الحجاج يوسف القضاعى البلنسى المتوفى عام 542 هـ ( 1147 م ) .

وقد تابع الاندلسيون الاشتغال بفن المقامة حتى نهاية عهدهم الاندلسى ، أيام بنى الاحمر فى غرناطة ، ومن أشهر أدباء هذا العصر الذين زاولوا هذا الفن الادبى الوزير لسان الدين بن الخطيب ، بمقاماته العديدة التى أنشأها ، والتى منها : الكتاب الذى نتعرض لدراسته هنا ، وهو « معيار الاختيار » ، ومقامته « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف» و « مقامة السياسة » وغيرها .

— ❋ —

وعلى ضوء ما أوجزنا بيانه عن «المقامة» ومقوماتها ، ومدى صلتها بفن القصة العربية ، وعن دور الاندلسيين فيها بالنسبة للمشارقة، نستطيع أن نزن كتاب « معيار الاختيار » فى هذا الميدان ، فنقول : انه عبارة عن وصف قصصى ، جاء فى صورة مقامة تقليدية ، حاول بها ابن الخطيب ـ كما حاول فى غيرها ـ أن يجارى بها من سبقوه فى هذا الميدان ، وفى سبيل ذلك حشد لها المزيد من فنون القول والبيان ، وبخاصة مقدمة كل من المجلسين ، ونهايتهما ، حيث انصرف فيهما الى حد ما عن المعنى الى اللفظ مما أفقد المقدمة ـ خاصة ـ قيمتها الادبية ، من أديب مثل ابن الخطيب .

ولكن عندما تناول صلب الموضوع ، فانه ـ وان كان قد عنى بالاسلوب أيضا ـ الا أن الوصف للمدن عموما قد جاء تحفة فنية رائعة ،

فقد تناولها تاريخيا واجتماعيا وثقافيا ، وتمكن ــ رغم قيود السجـــع والجناس والكناية وغيرها ــ من ابراز هذه المعالم فى صورة مشوقة .

ومع ذلك ، نرى أن ابن الخطيب لو أطلق لنفسه العنان فى هذا المؤلف التاريخى ، وحرر نفسه من هذه القيود اللفظية التى كبل بها قلمه ــ لجاء وصفه للبلدان أبدع فنا ، وأشمل موضوعا ، فلا شك أنه حصر نفسه فى نطاق ضيق ، كانت نتيجته الحتمية أن فوت علينا المؤلف انطلاقاته المعروفة عنه ، فى تقصى المعانى ، والاحاطة بشتات الموضوع الذى يتعرض له .

## قيمـــة الكتاب كوثيقة تاريخية

توجد لكتاب « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » أكثر من مخطوطة ، فى الاسكوريال والرباط ، وفاس ، وقد ورد هذا الكتاب ضمـــن مؤلف آخر من مؤلفات ابن الخطيب ، وهو « التاج المحلى فى مساجلة القدح المعلى » ( 554 الاسكوريال ) ، كما ورد ضمن مؤلفه « ريحانـــة الكتاب ونجعة المنتاب » حيث أورده المؤلف فى باب « المقامات » .

وقد ألف ابن الخطيب « معيار الاختيار » هذا عندما نفى الى المغرب مع سلطانه الغنى بالله ابن الاحمر المعروف بمحمد الخامس ، حيث حلا ضيفين على السلطان أبى سالم ملك المغرب ( محرم 761 هـ ــ 1359 م ) ولكن ابن الخطيب لم يذكر فى الكتاب تاريخ تأليفه بالضبط ، وانما عرفنـــا الفترة التى ألفه خلالها من مؤلف آخر له ، حيث ذكر به أنه دون بعض كتبه خلال سنوات المنفى الثلاث التى قضاها بمدينة سلا بالمغرب (1) . ( 760 ــ 763 هـ ) = ( 1358 ــ 1361 م ) ، ومن بين تلك الكتب « معيار الاختيار » ، وقدأدرج الغزيرى هذا المؤلف تحت رقم 1777 بفهـــرس المخطوطات العربية بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا .

---

(1) ابن الخطيب فى « نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب » ، مكتبـــة الاسكوريال بمدريد لوحة (67) .

ولما كنت قد قارنت ــ أثناء البحث والدراسة ــ بين نسخ مخطوطة هذا الكتاب ، والتى وجدتها فى كل من مدريد والرباط وفاس والقاهرة والفاتيكان ، فقد بان لى أن أكملها وأوفاها ــ كما ذكرت ــ مخطوطة الاسكوريال بأسبانيا ( رقم 554 ) ، وقد ذكر ناسخ هذه المخطوطة أنه كتبها عام 173 هـ ( 1468 م ) ، أى بعد تدوين ابن الخطيب للكتاب نفسه بحوالى 112 عاما تقريبا ، وبعد وفاة المؤلف بنحو 97 عاما .

وقد نشر المستشرق الاسبانى « سيمونيت » القسم الاول من « معيار الاختيار » ، بعد أن فصل عنه المقدمة التى أشرنا الى مضمونها ، وهذا القسم هو الخاص بمدن مملكة غرناطة ، وعددها أربع وثمانون مدينة ، تحت عنوان « وصف مملكة غرناطة ، فى عهد بنى نصر » (1) . ثم نشر باقى الكتاب ــ وهو الجزء الخاص بمدن المغرب ــ المستشرق الالمانى « موللر » ، متضمنا وصفا لجبل الفتح ، وسبتة ، ومراكش ، وأغمات ، فى مجموعة خاصة (2) . ولم يفت هذا المستشرق أن ينوه ببعض الاخطاء التى وقع فيها زميله الاسبانى « سيمونيت » عند تحقيقه للجزء الخاص بمدن الاندلس ، وان كان هو بدوره قد وقع فى عدة أخطاء أثناء التحقيق ، وذلك نتيجة عدم التمرس بالاساليب العربية ، ولا سيما عبارة ابن الخطيب كطابع عام لما كانت عليه اللغة فى العصور الاسلامية الوسطى .

وتجدر الاشارة الى أن قيمة « المعيار » تمكن فى التعريف بالوضعية التى كانت عليها كل من مملكتى بنى نصر وبنى مرين فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى ، وأن ابن الخطيب قد حدثنا ــ بحق أيضا

---

(1) راجع :

Descripcion del Reino de Granada bajo la, Dominacion de las Nazaritas (Madrid, 1861).

(2) راجع :

Beitaage zur Geschichte des Westlichen, Araber (Munchen, 1866).

خصوصا ــ عن عاصمتى كل من الاندلس والمغرب فى عصره ( غرناطة وفاس ) ، سالكا نفس الموضوعية تجاه كليهما ، دون أن يخفى لوما فيما لاحظه من مثالب بالنسبة لهاتين العاصمتين .

ونحن نعتقد من جانبنا أن المؤلف ــ عند تدوينه لهذا الكتاب ــ قد اعتمد على مصادر ثلاثة :

1 ــ زيارته للمدن التى تناولها قلمه :

فمن المعلوم أن ابن الخطيب كان قد وزر للسلطان يوسف الاول النصرى 733 ــ 755 هـ ( 1333 ــ 1354 م ) ثم لابنه من بعده الغنى بالله محمد الخامس 755 ــ 760 هـ ( 1304 ــ 1359 م ) ثم ــ للمرة الثانية ــ عام 762 ــ 793 هـ ( 1361 ــ 1392 م ) ، وطبيعة المنصب تقتضى تفقد الوزير هناك للبلاد والثغور الاندلسية ، للوقوف على أحوالها ، وحركة دولاب العمل فيها ، ثم توجيه العمال وارشادهم ، ومن ثم تحرير التقارير عن زياراته . كما أنه رافق سلطانه أبا الحجاج يوسف الاول فى زيارته التاريخية ، والتى بدأها من غرناطة فى 17 محرم 748 هـ ــ 1347 م ، صحبة الحاشية ، وقد أفرد ابن الخطيب رسالة خاصة بهذه الرحلة ، سماها : « خطرة الطيف ، فى رحلة الشتاء والصيف » جاء فيها أن الركب الملكى ــ بعد أن غادر العاصمة ــ وصل الى مدينة وادى آش ، وهناك استقبلهم الاهالى استقبالا رائعا ، ثم اتجهت القافلة شرقا مارة ببعض المدن والحصون الهامة ، مثل : بسطة ، وبرشانة ، وهنا صور ابن الخطيب الحالة التى كان يعانيها سكان هذه المدن ، نتيجة كل من الغارات النصرانية والسيول الموسمية ، ثم زار الركب مدينة « بيرة » ، أقصى الثغور على الحدود الشرقية ، وقد ذكر لنا ابن الخطيب ما كان يشعر به سكان هذا الثغر من القلق والخوف ، من جراء هجوم الاسبان المفاجىء بين حين وآخر ، كما صور لنا وعورة موقع المدينة ،

وصعوبة مسالكها ، حيث اضطروا للاسترشاد بدليل ماهر ، يكشف لهم طريقهم فى الجبال بين الروابى والوهاد .

وأخيرا يعود الموكب الى قاعدته « غرناطة » ، راجعا من طريق آخر ، مارا بثغر المرية ، حيث استعرض السلطان قطع الاسطول الحربى، واستقبل رجاله فى زيهم الرائع الانيق .

كما زار الموكب بعد المرية بعض المدن العامة ، مثل : بجانة ، وبرشلونة وفنيانة ، وينتهى المطاف بمدينة وادى آش مرة أخرى ، ومنها الى العاصمة « غرناطة » (1) .

وبذلك أتيحت فرصة رسمية هامة للوزير ابن الخطيب ، حيث وقف على أحوال هذه المدن الاندلسية خلال هذه الرحلة ، وكون لنفسه ودون فى مذكراته فكرة عميقة موضوعية عن كل مدينة زارها الركب السلطانى التاريخى .

أما بالنسبة للمدن المغربية فقد زار ابن الخطيب المغرب أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يتجول فى البلاد ويتعرف عليها ، ويختلط بأهلها ، ولاسيما رجال الادارة والعلماء والخاصة ، ولابد أنه شافه الكثير منهم برغبته فى الوقوف على معالم مدنهم وآثارهم واجتماعياتهم ، وكانت المعاينة لديه وسيلة هامة فى وزن الحقائق ، وكشف الظنون ، وجلاء الشكوك .

لقد زار ابن الخطيب المغرب لاول مرة سفيرا من لدن السلطان الغنى بالله ابن الأحمر ، الى سلطان المغرب عام 755 هـ = 1354 م .

---

(1) راجع التحقيق الحديث لهذه الرحلة فى كتاب « مشاهدات ابن الخطيب فى بلاد الاندلس والمغرب » للدكتور أحمد مختار العبادى ، طبعة جامعة الاسكندرية 1958 ، حيث تقع هذه الرحلة بين هذه المشاهدات ص : 25 – 35 .

ثم رجع الى المغرب مرة أخرى ، ولكن منفيا مع سلطانه المخلوع الغنى بالله ابن الاحمر ، وذلك فى محـرم 761 = 1359 م ، وفى هـذه المرة مكث بالمغرب ثلاث سنوات تقريبا ، كما أشرنا الى ذلك فى موضعه ، وفى تلك الاثناء زار بعض المدن المغربية ، ودون بعض رحلاته يومئذ فى كتابه المعروف باسم « نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب » ، الذى وضعه بالمغرب مع بعض الكتب الاخرى ، التى منها كتابنا « معيار الاختيار » .

وأخيرا استقر ابن الخطيب بالمغرب حينما فر من الاندلس ، حيث شعر بما يدسه له خصومه عند السلطان الغنى بالله ، على نحو ما هو معروف من تاريخ مأساة هذا الوزير ، فوصل المغرب عام 773 هـ = 1371 م ، وبقى به حتى نكب وقتل عام 776 هـ = 1375 م .

فهذه ثلاث زيارات قام بها المؤلف للمغرب ، سفيرا ، فمنفيا ، ففارا ناجيا بحياته أخيرا ، وتعتبر فترة النفى ـ من بين هذه الزيارات الثلاث ـ فترة البحث والدرس والتأليف عند ابن الخطيب ، فقد منح الرواتب وأقطع الاراضى ، واستقرت نفسيته الى حد سمح له بمواصلة تآليفه .

أما المرة الاولى فكان وقتها أضيق من أن يتسع للتجوال عبر المدن المغربية ، فهـو حينئذ سفير منوط به أمر رسمى ، وذو قيـود وحدود مـرسـومـة .

وأما فى المرة الاخيرة حيث استقر نهائيا بالمغرب ؛ فنرجح أن ابن الخطيب لم يتجه كثيرا للبحث والتدوين ، فقد كانت الهزات السياسية بالمغرب تتناوشه ذات اليمين وذات الشمال ، بفضل مواصلة خصومـه ـ بغرناطة ـ السعى فى القضاء عليه ، وعلى رأسهم سلطانه القديـم « الغنى بالله » والذى تأثر الى أبعد حد بسعاية هؤلاء الخصوم ، ومـع هذا فقد ألف ابن الخطيب ابان هذه الفترة كتابه « أعمال الاعلام ، فيمن بويع قبل الاحتلام ، من ملوك الاسلام » ، استجابة للظروف الجديدة التى أملت عليه اصدار هذا المؤلف

2 ــ الاطــلاع والسمــاع :

وهو المصدر الثانى مــن المصادر التى اعتمد عليها ابــن الخطيب فى تدوين كتابه « معيار الاختيار » ونعنى به قراءته لكتب من سبقــوه من المؤرخين والكتاب فى أوصاف المدن الاندلسية والمغربية على الخصوص، وفى تاريخها الحافل بالاحداث ، وكذلك سماعه من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فى أحوال المغرب منذ القدم، وأحداث المملكة الاسلامية بالأندلس، لا سيما وأنه تربى فى أحضانها ، ودرج بين ربوعها ، وجاس خلال ديارها ، فحديثه عنها حديث الخبير العالم ، ووصفه لها وصف المحيط بأسرارها . هذا بالاضافة الى مجالس ابن الخطيب العلمية ، وندواته الثقافية ، والتى كانت كثيرا ما تجمع رواة الاخبار ، وحفظة التاريخ .

3 ــ التقارير الادارية الرسمية :

وابن الخطيب كوزير ، وأمين سر السلطان ، لا بد وأن يطلع علــى كافة التقارير الرسمية ، والرسائل الادارية ، التى كانت ترد عادة الــى الديوان من عمال وحكام الاقاليم ، فهذه التقارير وتلك الرسائل وثائق تاريخية لها أهميتها البالغة ، اذ على أساسها ــ فى العادة ــ تدار سياسة الدولة ، وتوجه الامور الوجهة الصالحة ، لذلك نرى أن ابن الخطيب قــد استفاد الى حد كبير من هذه الوثائق ، بالاضافة الى المصدرين السابقين، وبذلك أمكنه أن يعطينا هذه الاوصاف لتلــك المدن فى مؤلفه « معيــار الاختيـــــار » .

هذا ، وينبغى أن نشير اخيرا الى أن شخصية المؤلف وعلاقاتهــا بالآخرين لا بد وأن تنعكس على كتاباته ، وهذا ما وضح من خــلال أوصاف ابن الخطيب لبعض البلاد وأهلها ، فانه وان كان قد تعمق فــى البحث على نحو دقيق ، وحلل الاسباب والمسببات حتى جاء الموضوع

وثيقة تاريخية يعتمد عليها الى حد بعيد ـ وبخاصة اذا اعتبرنا قلة المراجع التاريخية التى تناولت العصر الذى عاشه ابن الخطيب ، وذلك فى أخبار كل من الاندلس والمغرب ـ الا أنه لا ينبغى أن نغفل الدوافع الشخصية ، والنزعات النفسية للمؤلف أيا كان ، فهذه وتلك لا بد وأن يحسب حسابهما ، ويقام وزنهما ، فى تقييم مثل هذه الوثيقة التاريخية ، لرجل وزير كابن الخطيب ، قضى حياته بين تيارات السياسة ، تتنازعه الاهواء والدوافع ، يعطف على مسلكة البعض ، وينقم على خطته البعض الآخر ، وبالتالى يكون اتجاهه متباينا نحو كليهما ، وما يصدق على الافراد يصدق على مجموعة منها تؤلف بلدا أو مدينة .

وللتدليل على هذا التأثر النفسى عند الكاتب ، وانعكاسه على ما يحرره ، نذكر أن ابن الخطيب نفسه قد صب جام غضبه على مدينة سلا المغربية ، فى رسالته المسماة « مفاخرات بين مالقة وسلا » ، رغم أنه أقام بها طيلة فترة النفى الاولى ، قرابة ثلاث سنوات ، واحتوته عزيزا مكرما ، ولكن كان قد حدث احتكاك بينه وبين بعض الفقهاء من أهل هذه المدينة ، الامر الذى ساقه الى تاليف رسالة خاصة ، فى النيل من هؤلاء الفقهاء ، وهى المسماة « مثلى الطريقة ، فى ذم الوثيقة » ، فى أسلوب يفيض اقذاعا ونيلا غير كريم من الخصوم ، وعليه ـ بالتالى ـ فلم يكن من المنتظر أن يرتفع ابن الخطيب بمدينة سلا فى المفاخرات مع مالقة .

فنخلص من هذا الى أن ابن الخطيب لم يسلم ـ الى حد ما ـ من تحامل فى وصفه لبعض المدن الاندلسية والمغربية فى كتابه « معيار الاختيار » ، وبخاصة عندما كان يتناول أحوال سكانها الاجتماعية . بيد أن هذا التحامل الضئيل المفترض لن يطغى بحال على ما للكتاب من قيمة تاريخية كبرى ، ولا يمنع الدارسين لتاريخ المغرب والاندلس ـ فى الفترة التى عاصرها ابن الخطيب ـ من الاستفادة من « معياره »

هذا الى حد بعيد . . ، اذا ما عن لهم الكشف عن الحالة الاجتماعية بهذيـــن القطرين فى ذلك العصر ، وعن الاقتصاد ، والمحصولات الزراعية ، وأهمية الاسواق ، والصناعة الاندلسية ودورها ، وما الى ذلك مما تناوله المؤلف ، تجاه البلاد الاندلسية والمغربية ، فى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى .